مجلّة نصف سنوية محكّمة تصدر عن قسم الدراسات الاسلامية في بيت الحكمة ـ بغداد
رقم إيداع مجلة دراسات الاديان في دار الكتب والوثائق/ العدد ت ١١٩١٠/٤في ٢٠١٩/١٢/٢٤
ISSN 2079-6129 رقم الإيداع الدولي
Info@baytalhikma.iq

حضور قيم العيش المشترك في المجتمع المغربي: صفحات من ذاكرة دمنات

تاريخ تقديم البحث:- ٢٠٢٥/١/٢٠
تاريخ قبول البحث:- ٢٠٢٥/٥/٨

أستاذ. متعاون.دكتور حميد حقي(*)

الملخص

يطرح هذا البحث قضية حضور قيم العيش المشترك في المجتمع المغربي بشكل عام، وفي ذاكرة مدينة دمنات بشكل خاص، بهدف تجلية الدور الذي لعبه المغرب ولا يزال في تعزيز قيم التسامح والتعايش السلمي في ظل التعددية الدينية، مع التركيز على العلاقة الثنائية بين المسلمين واليهود. كما يسعى البحث إلى تقديم صورة واضحة للمغرب كنموذج يحتذى به في نشر السلم العالمي، ويستعرض تجليات ثقافة التعايش في تاريخ دمنات، التي شكلت ملاذًا آمنًا للطائفة اليهودية. وقد أسهم هذا التعايش في تحقيق ازدهار في مختلف المجالات: الدينية، الاجتماعية، الثقافية والاقتصادية.

الكلمات المفتاحية: العيش المشترك؛ التسامح، التعايش، الأديان

المقدمة

أضحى العالم اليوم بحاجة ماسة أكثر من أي وقت مضى إلى ضرورة بناء العلاقات الإنسانية والدولية على أساس الحوار والحرية والتسامح المفضي إلى تعزيز قيم العيش المشترك في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان؛ إذ هي الضامنة للسلم العالمي والكرامة الإنسانية، وهي الكفيلة بإحلال الأمن والاستقرار محل مظاهر التطرف والعنف والكراهية والإقصاء التي يروح ضحيتها الإنسان، وتُخرب بسببها الأوطان.

(*) جامعة السلطان مولاي سليمان/المغرب
hamid.hakki92@gmail.com

Quarterly journal issued by Department of Religion Studies In BaytAl-Hikma
No.of deposit at Library and Archives(11910/4) 2019
ISSN 2079-6129
Info@baytalhikma.iq

وقد شـكلت الحضـارة المغربية منذ نشـأتها إنموذجـاً يحتـذى به في نشـر السـلم العالمي، وبناء الأخوة الإنسانية، وضمان حقوق الأفراد والجماعـات؛ بمـا في ذلـك الأقليـات الدينية؛ فبالرجـوع إلـى سـجلاتها التاريخـة يمكننا أن نقف على جوانب مشـرقة لتشبث المغرب دولة وشعبا بقيم التسامح الديني والتعايش السلمي مع أتباع الديانات الأخرى عموما، واليهودية على وجه التحديد. وهذا الذي يهمنا أكثر.

وإذا علمنا أن اليهود لم يكونوا يتواجدون إلا في مناطق جغرافيـة محددة، وأن هذه المناطق كانـت تتفاوت فيما بينها في نسـبة حضور هذه القيـم لدى أهلها... فإنه تبقى الأسـئلة الأهم من جملة ما يثيره الموضوع: إلى أي حد كانت هذه القيم الأخلاقية حاضرة في العلاقات الإسلامية اليهوديـة بالمغـرب عمومـا وبمدينـة دمنـات تحديـدا؟ وأين يمكـن أن نلمس هـذا الحضور القيمي في الواقع الاجتماعي لسكان المدينة؟ ثم كيف أسـهم ذلك في بناء نموذج التعايش المثمر اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا؟

وللإجابة عن هذه الأسـئلة قسـمت الدراسـة إلـى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، وهي: أولها في كـون المغرب وجهة آمنة للطائفة اليهودية، وثانيهـا في حضـور قيم العيش المشـترك في الذاكـرة الدمناتيـة، أمـا المبحـث الثالـث فقد خصصتـه للحديـث عـن تجليـات قيـم العيش المشترك بين مسلمي ويهود دمنات.

المبحث الأول

المغرب وجهة آمنة للطائفة اليهودية

قبـل أن أناقش موضوع حضـور قيم العيش المشـترك في ارتباطـه بتاريخ المدينة لا بد من التأكيـد على أن المغرب أصبـح – بفضل هذه القيـم- إنموذجاً فـي التدين الوسـطي المعتدل، ومحجـا للتأطيـر الدينـي والتربـوي، كما أنه أصبـح مصـدرا لتزويـد العديـد مـن الـدول الأوروبيـة والأمريكيـة ودول الخليـج العربي بالأئمة والوعّاظ والمرشـدين. وهـذه الميزة – بطبيعة الحـال- لم تكن وليدة اليـوم، وإنما هي استمرار لما عُرف به المغرب منذ عهود خلت، خاصـة مـع اليهود الذيـن قدموا إلـى المغرب عبـر مجموعتيـن «قدمت الأولـى مع رحلات الفنيقييـن، وشـكلت مجموعـة سـميت باليهود المحليين أو التوشفيم، وقدمت المجموعة الثانية من الأندلس إثر الطرد المسـيحي عام ١٤٩٢، فشـكلت مجموعة سـميت باليهود المهجرية أو الميكوراشيم، وهكذا شكلت المجموعتان طائفة عاشـت حياة خاصة فـي تقاليدهـا الاجتماعية وعاداتهـا التـي تكاد تشـترك فـي بعضها مع المسلمين»[١].

ومـن المناطـق التي اسـتقروا بها – حسـب حاييم الزعفراني- فـاس، مراكش، تارودانت، سـلا، تفيلالـت، دمنـات، أيت عتـاب، القصر الكبيـر، مكنـاس، أمزميز، وجدة، تـازة، بني عياط، تطـوان، صفـرو، أزرو...وغيرها [٢] . ويُسـتنتج من خلال العديد من الدراسـات التي كُتبت في الموضوع أن «عددا كبيرا منهم كانوا

مجلّة نصف سنوية محكّمة تصدر عن قسم الدراسات الاسلامية في بيت الحكمة ـ بغداد
رقم إيداع مجلة دراسات الاديان في دار الكتب والوثائق/ العدد ت ١١٩١٠/٤في ٢٠١٩/١٢/٢٤
ISSN 2079-6129 رقم الإيداع الدولي
Info@baytalhikma.iq

يقيمـون بالمناطق الجنوبيـة، وجبال الأطلس، وعاشـوا حياة البداوة واحتكوا بالمسـلمين، أما الذيـن اسـتقروا بالمدن الكبـرى كمدينتي فاس ومراكش فكان عددهم قليلا»[٣].

وتؤكد المصـادر المكتوبة كما الشـفاهية أن المسـلمين واليهود اسـتطاعوا رغم الاختلاف الدينـي والعرقـي والثقافـي أن ينسـجوا بينهم علاقات متينة للعيش المشترك؛ يطبعها التسامح والتعايش السلمي، رغم أن ذلك لا يعني إطلاقا عـدم وجود علاقـات متوترة بيـن عناصر من الطرفيـن؛ «فاليهـودي يصادق جاره المسـلم ويعاديه، ويحبه ويكرهه، كما أن المسلم يصادق جـاره اليهودي، يحبه ويعاديه بما خلق الله عليه الإنسـان»[٤]. وهذا شـيء طبيعي في الإنسان، ولا علاقة له بالاختـلاف الديني، فنفس ما كان يقع بين اليهود والمسلمين يقع بين المسلمين فيما بينهم، وبين اليهود فيما بينهم.

وهذا ما يؤكده الزعفراني بقوله: «لا شك أن كلا مـن المجتمعيـن اليهودي والإسـلامي كانا يعيشـان عيشـة تختلف عن الآخر؛ فكل منهما غيور على هويته، ومتشبث بإيمانه ومعتقداته، غيـر أننـا نلاحظ في المسـار التاريخـي الذي يرسـم الحياة اليهودية في هـذا البلد، فضاء من التقارب، حيث يلتقي المجتمعان ويتعايشان في طمأنينة وسـلام، ونلاحظ أيضا مواطن التلاقي المفضلة، حيث تتجلى مساواة حقيقية في حضن اللغـة وتماثل البنـى الذهنية وتتضـح وتتحقق هـذه المسـاواة على مسـتوى الحيـاة اليومية، والاهتمامـات الاقتصادية، وفي أفضل لحظات الوجود، والمتخيل الاجتماعي، والثقافة الشعبية التـي لا تعـرف حـدودا دينيـة، ولا مواجهات ايديولوجية وطنية، ولا شـعورا دينيا، ويبدو أن اللحظات الشـعائرية هي نفسها كانت مطبوعة بقدر لا يستهان به من التوفيقية، كما تشهد على ذلك بعض العادات وبعض التقاليد والممارسات التي لوحظت أثناء الاحتفـالات الدينية الكبرى والأعياد العائلية»[٥].

وبتحليلنـا لهذه النصوص يمكـن أن نصحح كثيرا من الأفكار التي تقف وراء الفهم السـيء لـكل من مفهوم التسـامح والتعايـش ودورهما الهام في العيش السلمي المشترك، والتي تجعل كثيـرا من النـاس – بمن فيهم بعـض الباحثين - يـرون أنه لـم يكن ثمة تعايش بين المسـلمين واليهـود المغاربة، وأنه كانت بين أتباع الملتين صراعـات ونزاعـات، وسـأجمل الحديث عن ذلك في النقط الآتية:

النقطة الأولى:

لا ينبغي أن يُفهم من القول بحضور قيم التسامح والتعايش بين الملتين عدم وجود نزاعات وسوء تفاهم بينهما؛ إذ لا يتعارضان؛ فطبيعة الإنسان المزدوجة تقتضـي التقلب والتوتر والخصام... حتـى مـع أفـراد عائلتـه ممـن يدينـون بدينه ويتكلمون بلسـانه. لكن ما يجـب تأكيده هو أن هذه النزاعات لم تكن بسـبب الاختلاف الديني، وإنمـا هي أحداث عادية تحدث من حين لآخر، بسبب الاحتكاك والاختلاط وتبادل المعاملات، وفي بعض الأحيان تكون نتيجة لتوظيف أعيان السـلطة لمن دونهـم للإضـرار بالآخر، خدمة لمصالح شخصية ضيقة، كما سنرى مع أحداث دمنات.

Quarterly journal issued by Department of Religion Studies In BaytAl-Hikma
No.of deposit at Library and Archives(11910/4) 2019
ISSN 2079-6129
Info@baytalhikma.iq

النقطة الثانية:

كثير مما تحقق في بعض المدن المغربية آنئذ من مظاهر ازدهار التجارة والصناعة التقليدية، والتماسك الاجتماعي، وتنوع المشهد الثقافي لم يكن ليتحقق لولا التعايش السلمي بين الطائفتين، واحترام معتقدات بعضهما البعض.

النقطة الثالثة:

الانسجام بين المسلمين واليهود لم يتوقف عند حدود احترام معتقدات الآخر، وإنما وصل ما عبر عنه الزعفراني بالتوفيقية الدينية؛ وهذا الذي يوضحه في كتاب آخر له؛ إذ يؤكد أن المسلم واليهودي «يرجون معا الشفاعة والحماية من نفس الأولياء والصالحين، ويقومون بنفس التعبد وبنفس الرموز، ويقدمون نفس الصدقات، ويتوسلون بنفس الدعوات ونفس الصلوات، ويعود كل واحد منهم إلى بيته بعد أن زار نفس الولي غنيا في خياله بكل الخيرات التي كان يرتقبها من توقف زيارته هاته مزودا على كل حال بمزيد من الإيمان والآمال»[٦].

ويرد أحمد التوفيق على بعض الدراسات الاستشراقية التي تدعي أن اليهود المغاربة كانوا مضطهدين من قبل السلطة والمواطنين؛ مؤكدا أن «مثل هذه الادعاءات التي نصادفها في كتابات بعض الأوروبيين الذين كانوا يمهدون للتدخل السياسي والعسكري في شؤون المغرب لا تنطوي على كل الحقيقة التاريخية»[٧]. كما تبين الدكتورة فاطمة بوعمامة أن اليهود المغاربة «اندمجوا وتعايشوا مع المسلمين، ولم تظهر صراعات بينهم إلا من حين لآخر»[٨]. عكس ما كانت عليه أوضاع اليهود في أوروبا؛ بحيث «ضُيقت عليهم حرياتهم الدينية تطبيقا لقرارات المجامع الكنسية وموقف الحكام النصارى منهم»[٩]. وترى الباحثة أن هجرة بعض يهود أوروبا ولجوئهم إلى دول المغرب الإسلامي كان بسبب طردهم من قبل ملوك الإسبان الكاثوليك في نهاية القرن الثاني الهجري، وكذلك السياسة الإبادية وقرار الطرد في نهاية القرن التاسع الهجري. وتقول موضحة: «فما كان على يهود إسبانيا النصرانية إلا اللجوء والاحتماء بحكام المغرب الإسلامي، نتيجة تسامح هؤلاء مع أهل الذمة، إضافة إلى ترحاب حكام المنطقة بهم»[١٠].

المبحث الثاني

حضور قيم العيش المشرك في الذاكرة الدمناتية

يكاد يُجمع المؤرخون الذين تناولوا تاريخ دمنات بالدراسة والتحليل على أنها كانت ملاذا آمنا لليهود، وقد شكلت نسبتهم –حسب بعض المصادر- ثلث سكان المدينة، وهذا أحمد التوفيق ينص على أنه كان «يوجد بملاح دمنات سكان يصلون إلى ١٨٠٠ عائلة»[١٢]. ويفسر هذا التوافد على هذه المدينة ما مر معنا من كون اليهود يقيمون بأعداد كبيرة في المناطق الجنوبية وجبال الأطلس، وهذا ما يجعلنا نفهم بوضوح ما يشير إليه التوفيق من كون «ملاح دمنات القديم تقدم على وجود ملاح مراكش بأربعمائة عام»[١٢]. أي بأربعة قرون.

مجلَّة نصف سنوية محكَّمة تصدر عن قسم الدراسات الاسلامية في بيت الحكمة ـ بغداد
رقم إيداع مجلة دراسات الاديان في دار الكتب والوثائق/ العدد ت ١١٩١٠/٤في ٢٠١٩/١٢/٢٤
ISSN 2079-6129 رقم الإيداع الدولي
Info@baytalhikma.iq

وكان يهود دمنات يعيشون حياة عادية يشوبها الفرح والحزن، والشدة والرخاء، والسعادة والشقاء... شأنهم في ذلك شأن المسلمين. إذ كانوا يمارسون أنشطتهم الدينية والثقافية والاقتصادية بشكل طبيعي دون أن يشعروا بأي تمييز أو إقصاء على حساب دينهم أو لغتهم أو عرقهم. ومما كانوا يتميزون به أنهم لم يكونوا كسالى لا في دينهم ولا دنياهم، فهم يحبون العمل والكد، إلا في يوم السبت، الذي يعد أقدس يوم عندهم؛ يعطلون فيه تجارتهم، ويتفرغون فيه لأداء شعائرهم الدينية واحتفالاتهم الثقافية والعائلية.

وإلى جانب ذلك كانوا يتضامنون فيما بينهم؛ بحيث كان لهم «صندوق مال للنفقة على مساكينهم، ولهم عادات في التبرعات على إخوانهم»[١٣]. ويذكر محقق الكتاب أن روايات شفهية جمعها سنة ١٩٨٣ تشير إلى أن قسطا مما يُجمع من هذه الأموال يوضع في صندوق خاص يطلقون عليه صندوق فلسطين. كما أنهم كانوا يتضامنون مع إخوانهم المسلمين، وسنفصل في هذه النقطة فيما سيأتي.

وأما ما كان يقع بينهم وبين المسلمين من خصومات ونزاعات فهي مما تقتضيه الطبيعة الاجتماعية للإنسان، وما تستلزمه من الاحتكاك بالآخرين ومخالطتهم، وهي وقائع –في أسوأ الأحوال – لم تكن تنتهي بحروب دموية أو فتنة جماعية. وقد بين أحمد التوفيق «أن ما طرأ من صراع بين مسلمي دمنات ويهودها كان على الخصوص بين العامة من الملتين، بتحريك من الخاصة، خدمة لأغراض هؤلاء، وأن استغلال أعيان كل ملة لمن دونهم من العامة كان تناقضا لأهم التناقضات بين المسلمين واليهود»[١٤].

ومن تلك النزاعات ـ والتي تدل في تقديري على التعايش أكثر مما تدل على الصراع- ما ذكره أحمد نجيب وغيره بخصوص الخلاف المشهور بين أتباع الملتين حول السقاية، والذي كان سببا في تحويل اليهود بموافقتهم من ملاح أرحبي إلى الملاح الجديد؛ وتفصيل ذلك أنه لما زار السلطان مولاي الحسن الأول مدينة دمنات سنة ١٣٠٤ تقدم إليه بعض أعيان المدينة بشكاية بضرر اليهود وإفسادهم لماء ساقية بني سالم الذي يمر على ديارهم، ومنه يشربون ويأكلون ويستعملونه في وضوئهم، «ومن هذه الساقية يؤخذ الماء لمسجد القصبة، ولمسجد أرحبي، ودور اليهود متصلة مع دور المسلمين»[١٥]. ثم يذكر أن مولاي الحسن لما عاين بنفسه الساقية ودور الملاح، وعاين المسجد ومرور الساقية على الملاح لأرضه أمر بتحويل دور الملاح البالغ عددها مائة دار وإبعادها عن سكنى المسلمين. وعلى إثر ذلك عقد المولى الحسن اجتماعا بالمحل الذي نزل به بإمليل، بحضور العامل وأعيان المدينة وجماعة من يهود الملاح. يقول أحمد نجيب: «ولما حضر الجميع أخبرهم جميعهم بأنه عازم بحول الله بأن يبني محلا خاصا لسكنى اليهود بدلا من ملاحهم الذي يشتركون فيه مع المسلمين، ويكون الملاح الجديد أصلح وأوسع من الموجود الأول»[١٦]. وهنا يذكر المؤلف أن اليهود قبلوا بذلك لكنهم اقترحوا أن يبنى الملاح الجديد غير بعيد عن ملاحهم القديم، وهو ما

Quarterly journal issued by Department of Religion Studies In BaytAl-Hikma
No.of deposit at Library and Archives(11910/4) 2019
ISSN 2079-6129
Info@baytalhikma.iq

لـم يُـرض المسـلمين؛ مقترحين بناءه بمدشـر تلصمـات [١٧]، غير أن اليهود لـم يقبلوا بذلك. وهـذا ما جعل الحسـن الأول رحمـه الله يترك الموضعين المقترحيـن ويقترح بدلهما موضعا يرضي الفريقين، وهو مكان الملاح الحالي.

وكشهادة على ما تحدثت عنه من حضور قيم التسـاكن والتعايـش لدى سـاكنة دمنات أود أن أقف قليلا مع شـهادة أوردها المؤلف للسـلطان مولاي الحسـن الأول، وهي على شـكل ظهير ملكي يشكر فيه السـلطان أهل دمنات ويصفهم بكونهـم أهل الصـلاح والسـكينة... ومما جاء فيه: «كتابنا هذا أسـماه الله، وأعز أمره، وأطلع فـي سـماء المعالـي شمسـه المنيـرة وبـدره، يتعـرف منه إننـا بحـول الله وقوته، لمـا بلغنا عـن أهل دمنات الصلاح والسـكينة، والوقوف في الخدمة الشـريفة، اقتضى نظرنا الشـريف جعلهم تحت كنف التوقيـر والاحترام، والمبرة والإكـرام...»[١٨]. وقد كان لهذه الرسـالة تأثير كبيـر في اكتظاظ المدينة في السـنوات العشـر السـابقة لوفاة السـلطان الحسـن الأول، ويذكر الغجدامـي أن دمنات كانت في سـنة ١٣٠٧هـ «عامرة جدا، لا يوجد فيها محل للسـكنى بملك ولا بكـراء ولا برهن»[١٩]، مبينا أن مبرر ذلك هـو رغبتهم في السـكن داخل المدينة ليسـلموا من الوظائف المخزنية بعدما أعفى أهل المدينة منها.

ومن المفيد جدا أن أنقل هاهنا نصا بحرفه كما ورد فـي كتاب القول الجامـع، وهو في الحقيقة نص يشـرح نفسـه، ويوضح مدى رقي الأخوة الإنسانية في العلاقة القائمة بين الأسرة المسلمة واليهودية بالمدينـة، ويتحدث بالخصوص عن عـادات اليهود فـي عيدهم [٢٠]. يقـول: «فإنهم يأتون إلى دور المسـلمين جماعـات ووحدانا، عند من كانـت بينه وبينهم مودة، ويأتون بهدايا مـن طعامهم المعـروف بأقـراص الرقيق، مع أطباق لحم دجـاج والحوت، وأنواع الحلويات، يهـدون ذلك أيام العيد. وفـي آخر ليلة من ليالي العيـد، يخرجـون مـن ديارهـم ذكـورا وإناثا وصبيانـا، فيذهبون كل إلى الديـار التي قدموا لهـم الهدايـا، ومعهم أنواع ألعابهـم، من طبول وطرائـر، وهم يزغرتـون ويلعبـون متزينين بأنـواع الزينـة، ومعهم الشـموع الموقدة»[٢١]. ويضيـف قائـلا وهو يتحـدث فـي المقابل عن كيفية اسـتقبال المسـلمين لهم: «وإذا دخلوا دار المسـلم فرح بهـم، ويقدم لهم المسـلمون أنواع الأكل الـذي يجوز لهـم أكله في شـريعتهم، ثم يأتون بالمواعين التي قدموا فيها هداياهم، وهي مليئة بأنواع الفواكـه، كاللوز والجوز والفواكه والسـكر، ومع هذا كله شيء من الخميرة؛ لأن أيام عيدهم لا يأكلون إلا الفطير»[٢٢].

ومما تجب الإشارة إليه أن هذا التعايش الذي عرضنـا بعض صـوره في مدينـة دمنات كان حاضرا في جميع المـدن المغربية التي عرفت التعدديـة الدينيـة، بـل كان حاضـرا في جميع دول المغرب الإسلامي، فأغلب المصادر التي تناولـت الموضـوع تؤكد «وجـود تعايش بين المسـلمين واليهود بالمغرب الإسـلامي إذ كان اليهود يقدمون هدايا إلى المسلمين في عيد رأس السـنة، كما كان المسلمون يقدمون الخميرة لهم فـي عيد الفصـح، وهذا ما يؤكد حسـن معاملة

مجلّة نصف سنوية محكّمة تصدر عن قسم الدراسات الاسلامية في بيت الحكمة ـ بغداد
رقم إيداع مجلة دراسات الاديان في دار الكتب والوثائق/ العدد ت ١١٩١٠/٤في ٢٠١٩/١٢/٢٤
ISSN 2079-6129 رقم الإيداع الدولي
Info@baytalhikma.iq

المسلمين لليهود، عكس ما تعرضوا له في إسبانيا، نتيجة حركة الاسترداد المسيحية في الفترة الممتدة من ٨٩٨هـ - ٧٩٤م / ١٣٩١هـ - ١٤٩٣م، حيث تعرضوا للتهديد بالقتل وسلبت أموالهم»[٢٣].

المبحث الثالث

تجليات قيم العيش المشترك بين مسلمي ويهود دمنات

من خلال تحليل النصوص التي أوردناها في المبحث السابق يتضح جليا أن المجتمع الدمناتي إبان تواجد اليهود به كانت تطبعه قيم التسامح الديني والتعايش السلمي بين أتباع الديانتين، كما يتضح أن هذا الحضور القيمي كان يتجلي في كثير من مجالات الحياة، وعلى مختلف المستويات والأصعدة، وفيما يأتي تفصيل ذلك:

المستوى الديني:

إن أول ما يتجلى فيه التعايش الإسلامي اليهودي في تاريخ دمنات هو احترام كل طرف لمعتقدات الآخر؛ بحيث لا نجد مصدرا واحداً يشير إلى استفزاز المسلم لليهودي في ممارسة شعائره الدينية، والعكس كذلك.. فكأنهم كانوا يدركون أن الإنسان حر في أن يعتنق من الأديان ما شاء، وأن لا سلطة لأحد على الآخر ليجبره على اعتناق دين معين. ولربما كان للتدبير السياسي دوره الهام في حفظ السلم والأمن العام، وضمان حرية الأقلية الدينية في ممارسة شعائرها دون خوف من أحد، وأكثر من هذا أن السلطة كانت قد منحت اليهود حق الاحتكام إلى شريعتهم وشيوخهم وقضاتهم في كثير من النزاعات ذات الصبغة الدينية، «فقد كانوا يفصلون نزاعاتهم ذات الصبغة الدينية فيما بينهم، ويترافعون في الخصومات التي ليست لها صبغة دينية إلى عامل دمنات»[٢٤]. وربما هذا التعامل هو الذي جعل اليهود لا يمنعهم مانع من التأثر بمعتقدات المسلمين، ومشاركتهم فيها، وخاصة فيما يتصل بالأضرحة والزوايا والتبرك بالأولياء، وفي هذا الصدد يذكر الدكتور حميدة بضاك أن نساء اليهود كانت تشارك نساء المسلمين في زيارة ضريح سيدي ناصر أو مهاصر، والتبرك بالمياه المنبعثة من العيون التي تكون مجرى واد مهاصر رغبة منهن في الإنجاب [٢٥].

المستوى الاجتماعي:

استطاع المجتمع الدمناتي أن يخلق جوا اجتماعيا يتجاوز الاحترام المتبادل إلى الانسجام والتآزر والتضامن والتكافل، وقد رأينا كيف أن المسلم واليهودي يدخل كل منهما بيت الآخر ليشهد معه فرحا دينيا أو ثقافيا أو عائليا، وكيف كان الطرف المضيف يستقبل ضيفه ويكرمه، كما أنهما كانا يلتقيان في السوق وفي مواقع التجارة ومحلات الصناعة التقليدية، فضلا عن التآزر والتضامن القائم بينهما في السراء والضراء؛ فقد كان اليهودي التاجر يُقرض المسلم الذي يرغب في التجارة وليس له رأس مال، وكان المسلم المالك للأرض بدوره يكتريها لليهودي أو يُمكنه من زراعتها بالمشاركة. وهذا التكافل الاجتماعي

Quarterly journal issued by Department of Religion Studies In BaytAl-Hikma
No.of deposit at Library and Archives(11910/4) 2019
ISSN 2079-6129
Info@baytalhikma.iq

هو ما تحدث عنه صاحب «إينولتان»، موضحا أن العلاقة بين سكان المدينة «كانت مبنية على الهبات والمهادات والصدقات، وغيرها من صور التكافل»[٢٦] مؤكدا أن هذا التكافل يقلل من حدة ثنائية المالك وغير المالك، وأن من لم يحصد شيئا أو لا يملك أرضا كان يصله جزء من محصول أراضي المالكين من زرع وثمار وخضرة وغيرها. ولعل من أرقى صور التضامن بين الملتين ما يسميه التوفيق بالتضامن المورفولوجي، ويقصد به التضامن لاعتبار الجوار، ويمثل له بصورة راقية نقلها عن الغجدامي بشأن «حماية سكان مدينة دمنات لليهود الساكنين بجوارهم حين وقع الهجوم على هذه المدينة سنة ١٨٩٤، فقد دخل السراغنة فقصدوا الملاح للنهب، وكان رئيس أهل دمنات إذ ذاك علي الغوات الوودنوستي، فكان يجري يمينا وشمالا بباب الملاح يمنع السراغنة في النهب»[٢٧].

المستوى الثقافي:

وضمن هذا المستوى تدخل كل مظاهر احترام الخصوصية الثقافية والتفاعل الإيجابي معها، والتأثير فيها أو التأثر بها بين الجماعتين. ونجد هنا اللغة ونمط التفكير، والعادات والتقاليد والاحتفالات، وكذا مختلف ألوان الأدب كالأشعار والقصص والأمثال الشعبية وغيرها، وربما لا يخفى أن دمنات كانت –بإسهام الطائفتين- متفوقة على مستوى الموروث اللامادي.

ولعل أول ما يتجلى فيه التعايش والانسجام على المستوى الثقافي، بل والتأثير والتأثر هو اللغة؛ فاليهود كانوا يتحدثون باللهجة الأمازيغية المحلية، كما أهل دمنات كانوا يعرفون – بحكم الاحتكاك – مدلول كثير من الكلام العبري.

كما أن أشعار اليهود المغاربة عموما كانت متأثرة إلى حد كبير بالشعر المغربي، وهذا حاييم الزعفراني يقول: «ظل الشعر العبري الأندلسي لفترة طويلة يباشر سلطانا كبيرا على الثقافة اليهودية، وعلى هواة الشعر، وصمدت إبداعاته الكبرى لامتحان الزمن، ولا زالت قراءاته أو الاستماع إلى بعض القطع المرتلة منه تحدثان تأثرا عميقا لم تستطع معايير التحليل ومناهج النقد الحديث تفسيره»[٢٨]. وها هو مرة أخرى يتحدث عن الشغف المشترك لدى الطائفتين بالموسيقى الأندلسية، حيث يقول: «لقد احتفظ السكان المسلمون واليهود، في المغرب الكبير بشغف، وخصوصا في المغرب الأقصى، بذكريات الموسيقى الأندلسية العربية التي هاجرت معهم من المدن الأندلسية عندما اضطروا إلى مغادرتها»[٢٩].

كما أن المتأمل في كثير من الأمثال الشعبية الشائعة بين المسلمين أو بين اليهود سيجد أنها مأخوذة من ثقافة الآخر، وعلى سبيل المثال تذكر الدكتورة بوعمامة أن المثل القائل «ما تعمل الخير ما يوصلك للعار»، أو «ما تدير خير ما يطرا باس» هو مثل يهودي [٣٠]، وإن لم ينتبه لذلك كثير ممن جمعوا الأمثال الشعبية المغربية.

مجلّة نصف سنوية محكّمة تصدر عن قسم الدراسات الاسلامية في بيت الحكمة ـ بغداد
رقم إيداع مجلة دراسات الاديان في دار الكتب والوثائق/ العدد ت ١٠٩١٠/٤في ٢٠١٩/١٢/٢٤
ISSN 2079-6129 رقم الإيداع الدولي
Info@baytalhikma.iq

المستوى الاقتصادي:

كان اليهـود أهـم طائفة متاجـرة في دمنات، وذلـك لأسـباب متعددة، منها «كونهم وسـطاء رئيسـيين فـي البضائـع الأجنبية التي لـم تفتأ مكانتهـا تزداد في التجـارة القروية»[٣١]. وعن حسـن معاملتهـم للمسـلمين يقـول الغجدامي: «وكان ليهـود دمنـات امتـزاج واختـلاط بالمسـلمين كامتزاج الماء بالراح، وكان الواحد من المسـلمين يمكنه أن يأخذ كل ما يحتاجه إليه مـن مال أو متمول بالثلث أو النصف من الذمي بدون رشوة، وطال ذلك بين الفريقين»[٣٢]. غير أن منحهم القروض بدون فائدة كان ينطبق فقط على قروض التجارة والاسـتثمار الفلاحي، أما القروض العادية فكانوا يعطونها بفائدة يسمونها الطلـوع. ويرى أحمد التوفيق أن «تدخل اليهود فـي الاقتصـاد القـروي للمنطقـة، انطلاقا من دمنات بشـكل جعل رؤوس أموالهم أداة حيوية لا غنى عنها»[٣٣].

وهنا يسـرد جملة من الأمثلة التي تدل بالفعل علـى أن اليهـود «كان لهـم الـدور الأكبر في التجارة القروية». سواء أكانت برؤوس أموالهم أم بـرؤوس الأموال الأجنبية التي يتوسـطون فيها، ومن الأدلة كذلك على أن جزءاً من رواج السـوق بدمنـات ونواحيهـا يذكـر التوفيق أن أكثر من عشـرين سـوقا كانت تعمر في دمنات ونواحيها، وكانت تتعاقـب على الأيام المختلفة «دون أن يكون من بينها سوق يعمر يوم السبت الذي كان يُعطل فيه اليهود نشاطهم»[٣٤].

الخاتمة

على سـبيل الختم والإجمال لا بد من تسجيل جملة من الخلاصات والنتائج والتوصيات التي خلص إليها هـذا البحث، والذي يمكن أن تكون مسـودة أولية لمشـروع بحثي فـي الموضوع، وهي باختصار شديد:

- فـي ظل مـا يعاني منه العالـم اليوم عموما والمغرب بشـكل خاص من تكاثر أعداد الأفراد والجماعات الموالية للحركات الإرهابية يُصبح نشـر ثقافة التسامح والتعايش من آكد الواجبات على عاتـق الباحثيـن المتخصصيـن بالدرجة الأولى.

- إن مفهوم التسامح والتعايش لا يعنيان أكثر من احترام معتقـدات الآخرين، وعدم إقصائهم أو الإساءة إليهم بداعي الاختلاف الملي.

- شـكلت الحضارة المغربية منذ نشـأتها إلى اليوم نموذجاً يُحتذى به في نشر السلم العالمي، وبناء الأخوة الإنسانية، وضمان حقوق الأفراد والجماعات، بما في ذلك الأقليات الدينية.

- يُجمـع المؤرخـون الذي بحثـوا في تاريخ دمنات أنها كانت ملاذا آمنا لليهود، وأنهم كانوا يعيشـون بداخلها جوا من الانسـجام والتضامن والتآزر مع المسلمين.

- التسـامح والتعايش السـلمي فـي العلاقات الإسـلامية اليهوديـة بدمنات كانـت له تجليات على مسـتوى جميـع مجـالات الحيـاة، دينيا، اجتماعيا، ثقافيا، واقتصاديا.

Quarterly journal issued by Department of Religion Studies In BaytAl-Hikma
No.of deposit at Library and Archives(11910/4) 2019
ISSN 2079-6129
Info@baytalhikma.iq

- علاقة الأخوة الإنسانية بين سكان دمنات أثمرت ازدهارا وتفوقا في كثير من القطاعات الحيوية بالمدينة، كالتجارة والفلاحة والصناعة التقليدية.

ومن التوصيات التي لا ينبغي أن يفوتني تقديمها في ختام هذه الدراسة ما يأتي:

- تكريس مزيد من الجهود العلمية والثقافية من أجل الإبقاء على ثقافة التسامح الديني والتعايش السلمي وترسيخها في نفوس الناشئة.

- تنظيم مزيد من الملتقيات والندوات الفكرية في موضوعات ذات صلة بالقيم الأخلاقية التي تضمن العيش السلمي المشترك في ظل التعددية الدينية.

- تشجيع الباحثين المتخصصين على ملء الفراغ الذي تعرفه مدينة دمنات من حيث الأبحاث الفكرية والاجتماعية بالخصوص.

-الانفتاح على مختلف المؤسسات والشركاء المعنيين من أجل خدمة الموروث اللامادي لمدينة دمنات.

الهوامش

١- شرماط، عبد السلام، يهود المغرب: الوضع الاجتماعي والتشريعي، دراسة محكمة نشرتها مؤسسة مؤمنون بلا حدود، ص:٠١

٢-الزعفراني، حاييم، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، ط١، ١٩٨٧ – الدار البيضاء، ص:٢٦-٢٧

٣- بوعمامة، فاطمة، اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن هجري، مؤسسة كنوز الحكمة – الجزائر، ٢٠١١، ص:٥٩

٤- شرماط، عبد السلام، يهود المغرب: الوضع الاجتماعي والتشريعي، مرجع سابق، ص:٠٧

٥- الزعفراني، حاييم، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، مرجع سابق، ص:٢٨٨

٦- الزعفراني، حاييم، يهود الأندلس والمغرب، ترجمة أحمد شحلان، مطبعة النجاح الجديدة – ٢٠٠٠، ج:٢، ص:٥٠٨

٧- التوفيق، أحمد، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط٣، ٢٠١١م/ ١٤٣٢هـ ص:٣٦٧

٨- بوعمامة، فاطمة، اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن هجري، مرجع سابق، ص:٧٢

٩- نفسه، ص:٧٢

١٠- نفسه، ص:٧٢

١١- نجيب، أحمد، القول الجامع في تاريخ دمنات وما وقع فيها من وقائع، تحقيق: أحمد بن محمد عمالك، المطبعة والوراقة الوطنية – مراكش، ٢٠١١، ص:١٠١

١٢- نفسه، ص:١٠٢

١٣-نفسه، ص:١٠٢

١٤- التوفيق، أحمد، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص:٣٨٨

١٥- نجيب، أحمد، القول الجامع في تاريخ دمنات وما وقع فيها من وقائع، مرجع سابق، ص ٩٦

١٦- نفسه، ص :٩٦

١٧- وهو كما في حاشية الكتاب مدشر يعد أحد أرباض دمنات، ويقع في الجهة الشمالية الشرقية من أرحبي

١٨- نجيب، أحمد، القول الجامع في تاريخ دمنات وما وقع فيها من وقائع، مرجع سابق، ص:١٠٠

مجلّة نصف سنوية محكّمة تصدر عن قسم الدراسات الاسلامية في بيت الحكمة ـ بغداد
رقم إيداع مجلة دراسات الاديان في دار الكتب والوثائق/ العدد ت ١١٩١٠/٤في ٢٠١٩/١٢/٢٤
ISSN 2079-6129 رقم الإيداع الدولي
Info@baytalhikma.iq

١٩- الغجدامي، محمد، التسلي عن الآفات بذكر الأحوال وما فات، تحقيق أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء، ٢٠١٩، ص:٢٤٥

٢٠-عيد الفصح أو عيد الرقاق

٢١ – نجيب، أحمد، القول الجامع في تاريخ دمنات وما وقع فيها من وقائع، مرجع سابق ص:١٠٢-١٠٣

٢٢- نفسه، ص: ١٠٢-١٠٣

٢٣- بوعمامة، فاطمة، اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن هجري، مرجع سابق، ص:٢٤١

٢٤- التوفيق، أحمد، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص: ٤٠٣

٢٥- بضاك، حميدة، دمنات أو الذاكرة المنبعثة، منشورات دار التوحيدي بالرباط، ص:٤٧

٢٦ – التوفيق، أحمد، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص:٣٨٤

٢٧- الغجدامي، محمد، التسلي عن الآفات بذكر الأحوال وما فات، مرجع سابق، ص:٣٨٩

٢٨- الزعفراني، حاييم، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، مرجع سابق، ص:١٨٣

٢٩- نفسه، ص:١٨٧

٣٠-بوعمامة، فاطمة، اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن هجري، مرجع سابق، ص:١٥٢

٣١-التوفيق، أحمد، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص:٢٩٤

٣٢- الغجدامي، محمد، التسلي عن الآفات بذكر الأحوال وما فات، مرجع سابق، ص :٦١

٣٣- التوفيق، أحمد، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص:٢٩٦

٣٤- نفسه، ص:٣٠٠

المصادر

١- شرماط، عبد السلام، يهود المغرب: الوضع الاجتماعي والتشريعي، دراسة محكمة نشرتها مؤسسة مؤمنون بلا حدود

٢- الزعفراني، حاييم، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، الطبعة الأولى: ١٩٨٧ – الدار البيضاء

٣- بوعمامة، فاطمة، اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن هجري، مؤسسة كنوز الحكمة – الجزائر، ٢٠١١

٤- الزعفراني، حاييم، يهود الأندلس والمغرب، ترجمة أحمد شحلان، مطبعة النجاح الجديدة – ٢٠٠٠

٥- التوفيق، أحمد، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الثالثة: ٢٠١١م/ ١٤٣٢هـ

٦- نجيب، أحمد، القول الجامع في تاريخ دمنات وما وقع فيها من وقائع، تحقيق: أحمد بن محمد عمالك، المطبعة والوراقة الوطنية – مراكش، ٢٠١١

٧- الغجدامي، محمد، التسلي عن الآفات بذكر الأحوال وما فات، تحقيق أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء، ٢٠١٩

٨- بضاك، حميدة، دمنات أو الذاكرة المنبعثة، منشورات دار التوحيدي بالرباط

Quarterly journal issued by Department of Religion Studies In BaytAl-Hikma
No.of deposit at Library and Archives(11910/4) 2019
ISSN 2079-6129
Info@baytalhikma.iq

The Presence of the Values of Coexistence in Moroccan Society:Pages from the Memory of Demnate

Collaborating professor, Doctor: Hamid Haqi
Sultan Moulay Slimane University/ Morocco

Abstract

This research addresses the presence of shared living values in Moroccan society in general،and specifically in the memory of the city of Demnate. Its aim is to clarify the role that Morocco has played،and continues to play،in promoting values of tolerance and peaceful coexistence amidst religious pluralism،with a particular focus on the bilateral relationship between Muslims and Jews. Additionally،the study seeks to present Morocco as a model for promoting global peace،while examining the manifestations of the culture of coexistence in the history of Demnate،which served as a safe haven for the Jewish community. This coexistence has contributed to prosperity across various domains: religious،social،cultural،and economic.

Keywords: shared living; tolerance; coexistence; religions